الجدل حول منهجية المقاومة الفلسطينية والعمليات الإستشهادية

د. أمحمدي بوزينة أمنة

كلية الحقوق والعلوم السياسية

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف

العمليات الاستشهادية نوع خاص من العمليات العسكرية، إذ تتميز بأنها في الغالب عملية فردية تطوعية تهدف إلى تدمير الخصم والتضحية بحياة منفذ العملية في أن واحد، وقد ثار الجدل حول جدوى العمليات الاستشهادية بالنسبة للمقاومة الفلسطينية فقد كانت لها أثارها سلبية على القضية الفلسطينية، حيث كلفتها خسائر فادحة من النواحي البشرية والاقتصادية وحتى الناحية السياسية؛ لكن مع ذلك لا يمكن لأحد أن ينكر أنها أحدثت توازنا للرعب في مواجهة إسرائيل.

Martyrdom operations a special type of military operations, with the advantage of being mostly individual process voluntary aims to destroy the opponent and sacrifice the lives of the bomber in that one, and controversy erupted about the feasibility of martyrdom operations for the Palestinian resistance was her raised negative on the Palestinian issue, where the cost of losses heavy human and economic aspects and even political terms; but nevertheless no one can deny that it created a balance of terror in the face of Israel.

.

مقدمة:

نظراً للحروب العدوانية والتوسعية الإسرائيلية والاعتداءات المتكررة على الأراضي الفلسطينية، ونظراً لأن إسرائيل ارتكب ومازالت ترتكب جرائم الإبادة الجماعية وعملت على تدمير المنازل والأحياء والقرى والمدن والمنشآت الزراعية والصناعية والمدارس الآهلة بالمدنيين في المدن والقرى والمخيمات، ونظراً لعدم قيام الأمم المتحدة بدورها بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي ووقف الإرهاب الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني، ونظراً لاستمرار إسرائيل بجلب الملايين من المستوطنين وترحيل الفلسطينيين، إزاء هذا كله لم يبقى أمام الشعب الفلسطيني، إلا المقاومة واللجوء إلى العمليات الاستشهادية[1]، للوقوف أمام حروب إسرائيل العدوانية والاستيطانية ومساعيها لإقامة إسرائيل من النيل إلى الفرات والهيمنة على الاقتصاد والثروات العربية.

وكانت العديد من تجارب الشعوب في أغلب دول العالم، قد عرفت ما يشابه هذا النوع من العمليات سواء في إطار العمليات الحربية للقوات العسكرية النظامية والجيوش التقليدية أو في إطار عمليات المقاومة الشعبية لقوات

[1]- عرف الأستاذ أحمد صدقي الدجاني الاستشهاد والاستشهادي على النحو التالي:" الاستشهاد فعل يقع في دائرة الجهاد في سبيل الله، وتعبير في سبيل الله يتضمن الذود عن الوطن والعرض والمال، والعمل لانتصار القيم العليا التي نزل بها الوحي الإلهي، لتكون كلمة الله هي العليا. ويتميز الاستشهاد عن أفعال أخرى تقع في دائرة الجهاد بأن الاستشهادي يكون قد وضع نصب عينيه الشهادة في سبيل الله، فهو طالب الشهادة، وقد عزم على أن يقاتل العدو إلى أن يقتل فيكون شهيدا، ووارد أن يلتحم بسلاحه وأدواته التي يستخدمها لضرب العدو فيغدو جزءا منها، وهذا هو حال الاستشهادي الذي يفجر سيارة مفخخة، فالسيارة من أدواته والمتفجرات من سلاحه، وهو أيضا حال الاستشهادي الذي يجعل الحزام الناسف نطاقا له وسلاحا ويفجر نفسه".

أنظر: حنان السقاط، بين الاستشهاد والإرهاب، منشورات الزمن، بدون طبعة، فاس، المغرب، 2004 ، ص 129. أنظر أيضا: فرهاد خسرو خافار، الأصوليون والعمليات الاستشهادية، معهد الدراسات الإستراتيجية، ترجمة جهيدة لاوند، الطبعة الأولى، بغداد-، أربيل- بيروت، 2007، ص 14.

الاحتلال، وهي بصورها العصريّة نمط من أنماط المقاومة الحديثة، عُرفت بعد اكتشاف المتفجّرات في العصر الحديث، واشتهرت بعد أن أصبحت من وسائل حروب العصابات، وسبق الغرب المسلمون في اللجوء إليها، حيث عُرِفت في الحرب الأهليّة الأمريكيّة وحَرب أمريكا في الفيتنام واليابان، وأنحاء أخرى من العالم قبل أن يلجأ إليها المسلمون لقلّة البدائل والوسائل المتاحة في أيديهم لمقاومة الاحتلال والعدوان، وعدَم تمكنّهم من الصمود والوقوف في وجه الأعداء بإمكانيّاتهم المحدودة، مؤثرين الإقدام على العمليات الاستشهادية والموت بعزة في سبيل الله على العيش في الذل والهوان.

وقد كانت تلك العمليات في فلسطين بداية مقصورة على الجناح العسكري لحركة حماس والجهاد الإسلامي، لكن في وقت لاحق انتهجت كتائب شهداء الأقصى التابعة لفتح هذا النمط من المقاومة ضد إسرائيل عقب انتفاضة الأقصى لعام 2000[1]، ذلك أن انتفاضة الأقصى تميزت بكونها انتفاضة العمليات الفدائية الاستشهادية، هذه الأخيرة التي كان من أبرز نتائجها غير المحسوبة، أنها تزامنت مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر بالولايات المتحدة، لتعطي الانطباع بوحدة الحال بين الأمريكيين والإسرائيليين[2].

وقد أدى هذا الجدل حول جدوى العمليات الاستشهادية إلى البحث عن جدوى مقاومة الاحتلال الإسرائيلي بالوسائل العسكرية[3]، وقد تعددت وجهات النظر التي وقفت في وجه المقاومة الفلسطينية[4]، من هنا دار السجال

---

(1)- Christian Chocquet, Le Terrorisme n'est pas la Guerre, préface Eric Del becque et Jean Louis Esquiviez, librairie Vuibert, paris, Jun 2008, p 22.

(2)- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 27- 28.

(3)- ثابت محمد العمود، مستقبل المقاومة الإسلامية في فلسطين "حركة حماس نموذجا"، سلسلة الرسائل العلمية، مركز الإعلام العربي، الطبعة الأولى، مصر، 2009، ص 357.

(4) - Bernard Ravenel, Pour une Critique politique du Terrorisme, Confluences Méditerranée, N° 43, Automne 2002, p 95.

والجدل حول جدوى العمليات الاستشهادية بالنسبة للمقاومة الفلسطينية[1]، من هذا المنطلق، سوف نقف على هذا الجدل ونتائجه بالنسبة للمقاومة الفلسطينية وعلى شرعية أهدافها، على النحو التالي:

المبحث الأول: الجدل الفقهي حول العمليات الاستشهادية بين مؤيد ومعارض.

المبحث الثاني: شرعية المقاومة الفلسطينية والعمليات الاستشهادية.

المبحث الأول:الجدل الفقهي حول العمليات الاستشهادية بين مؤيد ومعارض.

أثارت العمليات الاستشهادية جدلا وخلافاً سياسياً داخل السلطة الوطنية الفلسطينية وبين صفوف الشعب الفلسطيني وتنظيماته المختلفة، حول جدوى الاستمرار في تلك العمليات ومدى تأثيرها من الناحية التكتيكية والسياسية والأخلاقية في الداخل الإسرائيلي ولدى الرأي العام العالمي[2]؛ وقد حدد أحد المثقفين الفلسطينيين "ماجد كيالي"، حيثيات وخلفيات هذا الجدل في العناصر التالية:

إنه جدل في غاية التعقيد والصعوبة، أولا: بسبب سيادة ثقافة سياسية ترتكز على الرموز والعواطف والمنطلقات، فإما مع أو ضد. ثانيا: بسبب حجم الإرهاب الإسرائيلي الموجه ضد الشعب الفلسطيني والذي يظهر هذه العمليات وكأنها ردة فعل طبيعية يستخدمها الطرف الضعيف في مواجهة الطرف القوي. ثالثا: أن الخلاف سياسي وليس مجرد خلاف في الوسائل، وهذه مسألة هامة جدا. رابعا: بسبب معاناة الانتفاضة من غياب قيادة تحدد رسالتها ووسائل عملها"؛ ويتميز هذا الجدل بكونه مفتوحا، يطرح باستمرار خلال اللقاءات الرسمية والسرية بين الفصائل الفاعلة في الساحة الوطنية، كما أن بعض جوانبه

---

[1]- سلمان بن فهد العودة، "الإرهاب ...والعمليات الاستشهادية"، منشور على الموقع التالي: http://www.saaid.net/arabic/ar183.htm

[2]- ماجد كيالي، "الانتفاضة والمقاومة والعمليات الاستشهادية"، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد (13)، العدد (52)، خريف 2002، ص 51.

الحساسة والهامشية تعرضها الصحف ووسائل الإعلام من خلال التصريحات والتصريحات المضادة، فالخلاف الجوهري ليس موضوعه مشروعية العمليات الاستشهادية أخلاقيا ودينيا، فهذا الأمر محسوم تقريبا، وإنما بالأساس وبالدرجة الأولى في تحديد مجال العمليات والمستهدفين منها، وفي مرتبة أدنى، جدواها في هذه المرحلة أو تلك.

ويلاحظ أن النقاش الفلسطيني حول الموضوع يراعي الحفاظ على الوحدة الوطنية وتجاوز اختلاف وتنوع الانتماءات السياسية والقناعات الإيديولوجية، وبالتالي الامتناع عن الانخراط في منطق المزايدات والتجريم، فهنالك اتفاق ضمني يدل على حس سياسي متطور على أن الاختلاف في التكتيك، لا يجب أن يؤدي إلى منطق الانخراط في الحرب الأهلية، لأن تطورا من هذا القبيل يؤدي لا محالة إلى ضياع وتصفية القضية الفلسطينية، ويجعل من إسرائيل سيدة الموقف[1]؛ ولكن مع ذلك ازدادت حدة الجدل، كلما ارتكبت قوات الاحتلال مجزرة جديدة، فنجد الأصوات المطالبة بالعودة إلى العمليات الفدائية داخل الخط الأخضر والمعروفة بالعمليات الاستشهادية، باعتبارها في نظر بعض الفصائل سلاح سياسي مرحلي فرضه واقع الاحتلال الإسرائيلي[2]، وفي هذا الإطار ينبغي الاعتراف بأن هذه العمليات ساهمت في تقويض أمن الإسرائيليين ورفعت كلفة الاحتلال الاقتصادية والبشرية، ولكن كلفتها الفلسطينية كانت فادحة من النواحي البشرية والاقتصادية وحتى من الناحية السياسية؛ إذ استطاعت إسرائيل توجيه ضربات موجعة قوضت الشبكة الواسعة

[1]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 109- 110.

[2]- رنا الشرفي، "مع تشديد الحصار وتصاعد العدوان"مراقبون: عودة العمليات الاستشهادية واردة في حال وصلت الأمور لطريق مسدود"، أخبار فلسطين، 17 محرم 1429ه/ 25 يناير 2008، ص 15.

من القيادات الميدانية الفلسطينية، وألحقت ضررا هائلا في البنية التحتية والاقتصادية للمجتمع الفلسطيني[1].

المطلب الأول: الوقوف على أسس الجدل الفقهي حول العمليات الاستشهادية[2]

يمكن التمييز داخل أطراف الجدل بين فريقين، أحدهما يعارض العمليات الاستشهادية لحسابات واقعية، والأخر يدعو لاستمرارها لاعتبارات سياسية، ويعمد كل جانب في عرضه ودفاعه عن موقفه إلى البرهنة بأنه على صواب، اعتمادا على تقارير وإحصائيات ومعطيات مستقاة من تاريخ وحاضر المقاومة،

---

(1)- تغريد كشك، "ظاهرة العمليات الانتحارية التفجيرية جدل مستمر"، الحوار المتمدن، العدد 1933، بتاريخ 2007/6/1، ص 05، منشور على الموقع التالي:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=98357
Voir aussi: Bernard Ravenel, op- cit, p 95.

(2)- يجب أن نشير إلى أن معظم الفقهاء المسلمين، قد أفتوا باعتبار أنه هناك فرق كبير بين المنتحر والاستشهادي، فالعمل الاستشهادي يتحرك في ساحة الجهاد من أجل حفظ الدين والوطن، فمن يقوم بعمليات فدائية وبطولية هي أبعد ما يكون عن الانتحار،فلم يحدد الإسلام لنا آلية معينة في ممارسة العمل الجهادي، فكما أن الجندي المسلم عندما يندفع إلى القتال في المعركة وهو يظن ظنا قويا بأنه سوف يقتل فإذا قتل اعتبر شهيدا، لأنه قتل في سبيل الله، فكذلك عندما تحتاج المعركة الجهادية الشرعية إلى عملية تفجير يتحول فيها الجندي المسلم إلى قنبلة متفجرة في العدو تلحق به ضررا على المستوى المادي أو على المستوى السياسي بحيث تشارك في إضعافه أو هزيمته، فإن هذا الجندي يكون شهيدا، لأنه قتل وهو يقاتل في سبيل الله، أما المنتحر فيقتل نفسه من أجل نفسه، في حين أن الاستشهادي يقدم نفسه فداء لوطنه ودينه، فالشباب الذين يدافعون عن أرضهم وأمتهم ليسوا منتحرين، بل أبعد ما يكونون عن الانتحار، وإنما هم شهداء حقا. أنظر: الشيخ محمد حسين فضل الله، "الفرق بين الاستشهاد والانتحار"، ورد في شبهات حول العمليات الاستشهادية، سلسلة قضايا أمة (2)، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء-المغرب، 1423هـ/2002، ص23- 24.

وعن وعي بالتحديات الآنية والمستقبلية، فضلا عن معرفة جيدة بالأوضاع العالمية والإقليمية والمحلية والوطنية[1].

صحيح أن الجدل الفلسطيني كان قائما منذ فترة طويلة، وبالتحديد بعد نبذ الإرهاب من قبل ياسر عرفات في السبعينات من القرن العشرين، إلا أن العمليات الاستشهادية جاءت لتخلق حالة من الجدل والنقاش الساخن على الساحة الفلسطينية حول تنفيذ هذا النوع من العمليات من حيث المبدأ، وحول جدوى الاستمرار بها، لكونها أصبحت جزءا هاما من أدوات المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي، بل وفي ظل تحول هذه العمليات إلى أبرز الوسائل التي اتبعتها المقاومة في تحقيق نوع من التوازن مع دولة الاحتلال، رأى البعض أن هذه العمليات ستفتح المجال واسعا أمام محاولات وصم كافة أشكال كفاح الشعب الفلسطيني المسلحة بالإرهاب، رغم أنها محاولة ظالمة ومنافية للشرعية الدولية، وعليه سوف نعرض لحجج كلا الفريقين بشئ من التفصيل على النحو التالي.

---

[1]- وقد جاء في تعليق محمد صادق الحسيني، حول الموضوع:" إن توقف العمليات العسكرية ضد المحتل في لحظة ما أو مكان ما، لا ينبغي أن يفهم البعض منه أنه قرار يقصد منه توديع السلاح أبدا، كما أن القيام بأعمال المقاومة العسكرية ومنها العمليات الاستشهادية[1]، لم يكن يقصد به يوما استنكاف العمل السياسي أو نفي العمل الدبلوماسي أو نفي مهمته وضرورته، من هنا أن تختلف القوى الوطنية المناضلة على توقيت أو نوع من العمل العسكري ومكانه، فهذا أمر طبيعي، وأن تطلب من بعضها البعض التنسيق والتعاون على إدارة الصراع مع العدو، فهذا أمر ليس طبيعي فحسب، بل ضروري أيضا، لكن من غير معقول أبدا أن يؤدي مثل هذا الاختلاف إلى نزاع مكشوف أمام أعين العدو الذي يتربص بنا للفتنة.

لمزيد من التفصيل أنظر: حنان السقاط، المرجع السابق، ص 111-112.

المطلب الأول: المعارضون للعمليات الاستشهادية

ينتمي فريق المعارضين في الغالبية الكبرى إلى النخب السياسية المسيطرة المنخرطة في الفصائل التاريخية لمنظمة التحرير الفلسطينية (فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) وإلى الأوساط المثقفة الأكاديمية وممثلي عرب إسرائيل في الهيئات التشريعية الإسرائيلية والمنتمين إلى مكونات المجتمع المدني العاملة في الآليات التي تسعى لتحقيقي تقارب بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي[1]؛ ويتفق جميع المعارضين في أمر يعتبرونه جوهريا، وهو أن الأصل في البلاء هو الاحتلال، ويرون أن هذا الوضع هو الذي يؤدي بالفلسطينيين إلى المقاومة، لأن رفض الاحتلال أمر مشروع وطبيعي؛ وانطلاقا من هذا المعطى، يذهبون إلى أن مجال المقاومة على اختلاف أساليبها بما فيها العمليات الاستشهادية، يستوجب أن يكون الأراضي المحتلة عام 1967؛ على اعتبار أن هنالك اعترافا دوليا بكونها محتلة وأن فيها أهدافا استيطانية وعسكرية بها مستوطنون وعسكريون، وهي الأهداف المشروعة للمقاومة.

في المقابل يعتقدون أن العمليات الاستشهادية خارج هذا المجال، أي حين تستهدف الداخل الإسرائيلي وتضرب المدنيين، على الرغم من أن لها ما يبررها، تلحق أضرارا سياسية واقتصادية واجتماعية ومعنوية بالقضية الفلسطينية، وقد زادت معارضتهم للعمليات، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر لوعيهم بأن حدة الخطر الإسرائيلي في تصاعد، فإسرائيل تسعى بكل الوسائل لاستغلال الظرف ودعم الإدارة الأمريكية والتأثير على الرأي العام الدولي الأوروبي خاصة، لشن

---

[1]- للإشارة، ففي مناسبات عديدة أصدرت مجموعات من بينهم بيانات للرأي العام الفلسطيني تدعوه إلى وقف العمليات الاستشهادية، والانخراط في منطق مفاوضات على العبارة الأنجع، ومن ذكر من أهم البيانات العريضة التي وفقع عليها 55 مثقفا فلسطينيا نشرتها جريدة القدس العربي الصادرة في لندن، وثانية في يونيو 2002 اعتمدها الاتحاد الأوروبي، صاغها ساري نسيبه وحنان عشراوي وإياد سراج.

حرب شاملة على المكتسبات الفلسطينية وضرب البنية التي أوجدتها السلطة الفلسطينية منذ بدء مسلسل أوسلو؛ وفعلا، تستغل حكومة شارون كل عملية استشهادية، للرفع من درجة الاستنفار وتنفيذ مخططات حربية، إذ لا تتردد في استعمال الطائرات الحربية الهجومية والدبابات والقنابل التي يفوق وزنها الطن، ويترتب عنها تحطيم المنشآت وفرض الحصار على السلطة الفلسطينية، وأمام الصمت العالمي أضحى أصحاب هذا الرأي، يخافون أن تصعد السلطات الإسرائيلية من عملياتها الانتقامية، فتعمد إلى أساليب أكثر خطورة من قبل الترانسفير والتهجير الجماعي[1].

كما يرى المناهضون للعمليات أن وقعها على السلطة الفلسطينية سلبي للغاية؛ فهي فضلا عن تهديدها المستمر للوحدة الوطنية، تمثل بحق تحديا لها ولبرامج التنمية اللازمة لتدارك التخلف الحاصل، إلى جانب أنها تقوض سلطتها المعنوية والمادية، وتظهرها عاجزة عن ضبط نشطاء المقاومة وحفظ الأمن وعرقلة حركات العناصر المشبوهة؛ وهو الحد الأدنى المطلوب منه في سعيها في الحصول على الاعتراف الإسرائيلي والدولي اللازمين لإعلان الدولة الفلسطينية، ويرون كذلك؛ أن العمليات مكلفة، لأنها تنهك طاقات الشعب الفلسطيني، فهي ساهمت بقدر كبير في تكريس وتعميق الحقد المترتب عن استمرار حالة الأزمة.

ويضيف المعارضون للعمليات الاستشهادية إلى أسانيدهم معطى لا يخلو من أهمية وله علاقة بالوضع السياسي داخل المنظومة الإسرائيلية؛ فهم يعتبرون أن حظوظ السلام تكون في الغالب أكثر توفرا في ظل الحكومات اليسارية؛ وأنها في المقابل تتقلص حين تكون رئاسة الحكومة في يد اليمين، وعليه، فإنهم يرون أن العمليات الاستشهادية تخدم بالدرجة الأولى قوى اليمين

[1]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 112- 113.

التي تبدو في نظر الناخبين الإسرائيليين الأكثر تصميما لوضع حد لها، كما أن من مضاعفاتها تهميش القوى الإسرائيلية الساعية للسلام.

بمراجعة الطرح الذي يعتمده المناهضون للعمليات الاستشهادية؛ لا يخلو من وجاهة، إلا أن ما يثير المتتبع هو التركيز على العمليات الاستشهادية؛ باختلاف أشكالها وغاياتها، ومن ثم يعطون الانطباع أنها الأصل في الأزمة، في حين أن كل الدلائل تفيد وبشكل لا يدع مجالا للشك، أن الاحتلال هو المصدر الرئيسي للعنف الفلسطيني، وهذا بالضبط ما يشدد عليه طرح المؤيدون لها[1].

المطلب الثاني: المؤيدون للعمليات الاستشهادية واستمرارها

ينتمي أغلب المؤيدون للعمليات الاستشهادية إلى التنظيمات الإسلامية الفلسطينية (حماس والجهاد الإسلامي)، وهم يعتقدون أن الرأي العام في غالبيته يساندهم في هذا الخيار، إذ يقول عبد عزيز الرنتيسي أحد كبار أطر حماس حول الموضوع: "لا يمكن أن يجتمع رأي الناس على أمر واحد، ولكن هناك أغلبية في الشارع الفلسطيني تقف وراء المقاومة والعمليات الاستشهادية، ويجب أن تحترم هذه الأغلبية؛ والدليل على ذلك أنه حين تحصل عملية استشهادية، فإنك ترى الفرحة وعلامات السعادة على وجوه الناس، فلا يمكن أن يقبل الإنسان الفلسطيني أن يرى الأطفال يذبحون والمنازل تهدم والعدوان مستمر، دون أن يتمنى الرد الذي يصيب العدو حتى يتوقف عن التوغل على الشعب الفلسطيني".

وفي ردهم على النداءات الداعية لوقف العمليات الاستشهادية، يشير المؤيدون إلى أن الحكمة تقتضي التركيز على الاحتلال وأسبابه، أما الفصائل المحاربة؛ فلا تقوم سوى برد الاعتبار للشعب الذي تقاومه من أجله، ويرون أنه من غير المعقول التخلي عن سلاح هو، أولا: السلاح الأمضى في مواجهة

[1]- نفس المرجع، ص 119-120.

الغطرسة الصهيونية، وثانيا: لأنه حقق من الأضرار للعدو ما لم يحققه أي سلاح أخر، وأخيرا لأنه في الوقت الراهن لا يوجد من حيث الفعالية بديل عنه.

وإن مسألة إلحاق الضرر بالقضية الفلسطينية وفق طرح المؤيدين، مجرد دعاية صهيونية انساق وراءها بعض المذعورين داخل السلطة الفلسطينية، والذين باتوا خائفين على مصالحهم عندما أخذت المقاومة توجها راديكاليا، وقد حدد الشيخ ياسين في حديث لجريدة التجديد المغربية بتاريخ 22 يناير 2003 الأسباب التي تجعل من غير المقبول سياسيا وأخلاقيا الدعوة لوقف العمليات الاستشهادية؛ في النقاط التالية:

- تعتبر هذه الدعوة هزيمة واستسلاما للمحتل الإسرائيلي.

- جرب الشعب الفلسطيني المقاومة السلمية لمدة 54 عاما، ولم يحصل على شيء.

- إن رفع الرايات البيضاء والاستسلام هو تنكر لتضحيات الشعب الفلسطيني ولآلاف الشهداء وعشرات الآلاف من الجرحى والموقوفين وآلاف المعتقلين في السجون الإسرائيلية.

- إن وقف العمليات يعني أننا على باطل، وأن العدو على حق، لأن ذلك يعني القبول بالاحتلال والاستيطان وممارسات المحتل والقبول بتصفية القضية الفلسطينية[1].

وفي إطار مناقشة أوسع للقضية، فإن مؤيدي العمليات الاستشهادية يردون على الهجوم الذي يبادر به منتقدوها مفندين الحجج والآراء والتصورات التي يتبناها المعارضون لأسلوب العمليات الاستشهادية، وذلك على أساس أن:

1- المنتقدون ذوو أهداف مصلحية، فكثيراً منهم لم يتذوق مرارة القمع الإسرائيلي، أو يتحسس بنفسه ثقل وآلام وضخامة الجرائم الإسرائيلية أو يرى آثارها ونتائجها في نفسه وأهله وعمله وبيته، فهم -عمليا- خارج دائرة

[1] - نفس المرجع، ص 117- 118.

الاستهداف الإسرائيلي المباشر، ويتحركون بعيدا عن نيران المعاناة الهائلة التي عاشها المواطنين الفلسطينيين، مما يحررهم من أية مصداقية، ويفقد نداءاتهم قيمة الإحساس بآلام ومعاناة المواطنين الفلسطينيين، الذين ينامون ويستيقظون ويتحركون على وقع مشاهد الموت والخراب والدمار التي يزرعها الإسرائيليين في حياتهم.

2- أن بعض منتقدي العمليات الاستشهادية، ينحدرون من أصول فكرية يسارية أو ينتمون إلى أحزاب يسارية فلسطينية لا تؤمن أصلا بأحقية الشعب الفلسطيني في استعادة فلسطين المحتلة منذ عام 1948[1]، وبالتالي ممارسة أشكال الكفاح الفعالة والمطلوبة لتحريرها، بل إن الجزء الأكبر من هؤلاء لا يؤمنون أصلا، بضرورة المقاومة المسلحة العنيفة للاحتلال الإسرائيلي، حتى في المناطق التي احتلت عام 1967، وتتبلور أفكارهم وسياساتهم وبرامجهم على أساس المقاومة السلمية أو الانتفاضة الجماهيرية غير العنيفة، التي لا تخرج عن نطاق الحجر والمقلاع، بزعم الرغبة في كسب واستدرار عطف المجتمع الدولي والرأي العام العالمي.

3- إن العمليات الاستشهادية في فلسطين عمل مقبول وسليم من الناحية الشرعية، أثبتته اجتهادات الفقهاء من جميع المذاهب الإسلامية، فقد أصدر العلماء المسلمون عدة فتاوى تجيز العمليات الاستشهادية في إطار الصراع الفلسطيني الإسرائيلي[2]، فقد أعلن المرجع الشيعي اللبناني محمد حسين فضل

---

[1]- أنطوان شلحت، "الاستيطان في الفكر الصهيوني، ورد في الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين (دراسة إستراتيجية وقانونية)"، التقديم والتحرير والمراجعة، صالح أبو الإصبع وأحمد سعيد نوفل، أعمال ندوة بمناسبة احتفالية جامعة فيلادلفيا بالقدس عاصمة الثقافة العربية، منشورات جامعة فيلادلفيا، دار البركة للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، 2011، ص 13.

[2]- راجع: يوسف القرضاوي والشيخ فيصل الموسوي، والشيخ محمد حسين فضل الله، شبهات حول العمليات الاستشهادية، سلسلة قضايا أمة(2)، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة

الله أن العمليات الاستشهادية ضد الاحتلال الإسرائيلي شرعية، لأنها تحصل تحت راية الجهاد لإخراج قوات الاحتلال الإسرائيلي التي تبيد الشعب الفلسطيني الذي لا يملك أي خيار سوى دحر العدو، مؤكدا أن كل من يتحفظ عليها أو يجرمها يسئ للانتفاضة الإسلامية وللشريعة الإسلامية، وقال: "إننا نؤكد شرعية العمليات الاستشهادية"، بل ووصل الأمر بالعلماء المسلمين من أمثال الشيخ يوسف القرضاوي والشيخ سيد طنطاوي والشيخ فيصل مولوي على اعتبار العمليات الاستشهادية أسلوب للجهاد ضد العدو وهي واجب شرعي، وأن المقاتل الذي يقتل فيها شهيد، لأن الهدف فيها نصرة الدين والأمة والدفاع عنها ضد المحتل الغاصب، وأزر العلماء المسلمين البابا شنودة الثالث الذي أعلن أن الفلسطينيين ليس لديهم سلاح للمقاومة سوى سلاح النفس والجسد، فالتضحية بالنفس والجسد جهاد شرعي ضد إسرائيل وعدوانها السافر.

وفي مؤتمر الإعلام وصورة العرب والمسلمين، في كلية الإعلام جامعة القاهرة، أكد الإمام شيخ الأزهر، الدكتور محمد سيد طنطاوي بأن:"من يفجرون أنفسهم، من رجال المقاومة الفلسطينية في مواجهة الأعداء هم شهداء"، كما أكد الدكتور يوسف القرضاوي على حق المرأة في الإسهام في الجهاد، كما أيد العمليات الاستشهادية مفتي الديار المصرية، الدكتور أحمد الطيب، ومفتي القدس والديار الفلسطينية الشيخ عكرمة صبري.

وعلى عكس الخلاف الفرعي الذي ثار بين شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي وعدد من العلماء المسلمين بشأن شرعية قتل المستوطنين اليهود

الأولى، الدار البيضاء-المغرب، 1423ه/2002، ص 6 وما بعدها. وأيضا: إسماعيل عبد الفتاح عبد الباقي، الإرهاب ومحاربته في العالم المعاصر، كتب عربية، القاهرة، بدون سنة نشر، ص 114. وأيضا: مسعود عكو، "العمليات الانتحارية استشهادية أم إرهابية؟"، الحوار المتمدن، العدد (1262)، بتاريخ 2005/7/21، ص 02.

وكذلك فتاوى العلماء حول العمليات الاستشهادية، على الموقع التالي:
http://alarabnews.com/alshaab/GIF/14-06-2002/Palestinefile.htm

بجانب العسكريين عبر العمليات الاستشهادية، كان رأي العديد من رجال الدين الأقباط مؤيدا للعمليات عموما ضد الإسرائيليين سواء كانوا عسكريين أو مستوطنين لأنهم في النهاية "قتلة ومغتصبون".

كما اعتبر مجلس العلماء المسلمين أن عمليات التضحية بالنفس ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي شرعية، وتشكل أسمى درجات الاستشهاد، وأضافوا أنه بما أن الاستشهاد ينفذ بوعي وحرية وبملء الإرادة، وبما أنه نتيجة إيمان عقائدي بالله، فهو أحد أهم الأسلحة الإستراتيجية المتوافرة لدى المقاومة لتعزيز إرادتها ومحاولة قهر الاحتلال الإسرائيلي الغاصب.

واعتبر الشيخ حميد العلي: "أن العمليات الاستشهادية تهدف إلى قتل الكافرين المحتلين وزرع الرعب في قلوبهم وإجبارهم بالتالي على التخلي عن احتلال أرض الإسلام، وإذا ما أدت هذه العمليات إلى موت حتمي لبعض النساء والأطفال كنتيجة وليس غاية، فإنها جائزة شرعا".

وقد شدد المجتهدون في فتاويهم وأرائهم، على أن الإسرائيليين على اختلاف مراتبهم (عسكريين ومدنيين وأطفال ونساء)، تحل محاربتهم بجميع الطرق، أما ما سواهم من اليهود خارج فلسطين خاصة مواطني الدول الإسلامية، فعليهم الأمان ولا يحل التعرض لهم[1].

ولابد من الإشارة إلى أن هذه الآراء حول الاستشهاد ليست محصورة بالخطاب المسلم، بل يبدو أنه ثمة انسجام ما بين الخطاب المسلم والخطاب المسيحي، ما يمنح المسألة بعدا قوميا، يشكل رجل القانون والدستور والخبير في القانون الدولي اللبناني الماروني إدمون نعيم مثالا على هذا الموضوع، حيث أصدر نعيم فتوى، تؤكد أن العمليات الاستشهادية في فلسطين المحتلة هي بالطبع شرعية، كما اعتبر أن القانون الدولي العام يجيز للشعب الفلسطيني مواجهة الجبروت الإسرائيلي بشتى الوسائل المتوفرة بغية التوصل إلى توازن مع

[1]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 10-11.

الأساليب التي يستخدمها الإسرائيليون، إذا لم يتمكن الشعب الفلسطيني من إيجاد سبل ناجعة لوقف الجبروت العسكري الإسرائيلي فيحق لهم تفجير أنفسهم في الأراضي الفلسطينية لهذا السبب، تعتبر العمليات الاستشهادية شرعية لأنها الأسلوب الوحيد الذي يلجأ الفلسطينيون إليه للوقوف في وجه الأسلحة المتطورة التي تستخدمها إسرائيل ضدهم، لكنه اعترف أن استهداف المدنيين في كافة المواجهات العنيفة أمر محرم، غير أن هذا المنطق لا يسود إلا في حال وجود نوع من التوازن في القوى بين الدول المتحاربة، وهذا بالطبع ليست حال في فلسطين، لذا عندما يتعلق الأمر بتحديد المعتدي، لا فرق بين عسكريي الدولة المعتدية بواسطة أي سلاح يملكه المعتدى عليه، فالسبيل الوحيد هو المتفجرات البشرية الفلسطينيون مقابل المدنيين الإسرائيليين، وبالتالي لا تمييز بين المستوطن المدني والعسكري الإسرائيلي، باختصار، يؤكد نعيم أنه في إطار القانون الدولي تحتاج القوة الساحقة لمقاومة ساحقة.

4- يشدد الفريق المؤيد للعمليات على ما تحقق من جرائها من مكاسب للقضية الفلسطينية، فالرنتيسي مثلا يرى أن العمليات حققت في الداخل الإسرائيلي ما لم تحققه الجيوش العربية النظامية جميعها في عقود من الزمن، وأوجز الشيخ ياسين من جانبه في نفس حديثه مع التجديد المغربية، انجازات العمليات الاستشهادية في النقاط التالية: "أوجدت توازن الردع مع العدو الإسرائيلي، وأفقدته أمنه واستقراره، فبدأ اليهود بالنزوح خارج فلسطين....انهيار الاقتصاد الإسرائيلي والسياحة وأصبح العدو يشعر أن مستقبله على أرض فلسطين في مهب الريح، وأصبح يفكر في المحافظة على أمنه بعد أن يفكر في التوسع على حساب الفلسطينيين"، ويفصل في موضوع توازن الرعب كاتب مقال نشر في موقع عرب أون لاين بتاريخ 8 فبراير 2002 أكد فيه على ما يلي: "هو سلاح يخلق مع غياب توازن القوى الطبيعية مع العدو المدجج بالسلاح، توازنا من نوع أخر هو توازن الرعب، فترسانة العدو الإسرائيلي هدفها بالأساس بث الرعب في

نفوس الفلسطينيين وإجبارهم تحت وطأة هذا الرعب على قبول المخطط الإسرائيلي بكامله، تأتي العمليات الاستشهادية لتعيد التوازن من جديد وتخلق هي أيضا رعبا مضادا ربما أقوى من ترسانة الأسلحة ذاتها، حيث أن كل فلسطيني يمشي على قدميه هو مشروع استشهادي، وكل حديقة عامة وملهى هو مكان لفعل استشهادي محتمل، فحالة فقد الأمل هذه، ضربت أكثر ركائز المشروع الإسرائيلي في فلسطين وهو الاستقرار، وأدت إلى هجرة ما يقرب مليون إسرائيلي خلال العامين الماضيين"[1].

وهناك جانب أخر يشيد به المؤيدون للعمليات الاستشهادية وله صلة بما وقع على المستوى الشعبي والرسمي عربيا وإسلاميا، فهي في نظرهم أعادت الاعتبار على المقاومة الفلسطينية، وبالتالي جعلت الرأي العام العربي متعاطفا معها ومستعدا لدعمها، دلت على ذلك المظاهرات الشعبية التي عرفتها العديد من العواصم العربية، حيث كانت عاملا مهما في حمل حكومات بعض هذه الدول المنخرطة في مسلسل التطبيع، على قطع الصلات مع العدو الإسرائيلي أو التقليص منها[2].

6- درج المشككون في جدوى العمليات الاستشهادية، على الحديث عما يسمونها الأضرار التي تلحقها العمليات الاستشهادية بالمصلحة الوطنية العليا، وتسببها بتعطيل المشروع الفلسطيني الداعي للحرية والاستقلال[3]، وتوحيد وزيادة اصطفاف الشعب الإسرائيلي وراء حكومته العدوانية بقيادة

---

[1]- نفس المرجع، ص 119-120.

[2]- يقول عبد العزيز الرنتيسي:" الانتفاضة أحدثت انقلابا في معنويات الأمة العربية والإسلامية والشعب الفلسطيني ونقلت الناس نقلة نوعية نحو معان جديدة من الكرامة والعزة، فأن تسمع امرأة تودع ابنها وهو ذهب للشهادة، هذه مفاهيم جديدة متا سمعنا عنها في التاريخ.

أنظر: حنان السقاط، المرجع السابق، ص 121-122.

[3]- Bernard Ravenel, op- cit, p 95.

شارون، وإعطائها الذرائع والمبررات للاستمرار في شن حربها ضد الفلسطينيين[1]، لكن من المهم التأكيد أن الدفاع عن النفس سنة بشرية عامة، وبمختلف الأشكال والأساليب التي تحقق هذا الهدف وتردع المعتدين وتحمي الأوطان، ولم يدون التاريخ أن شعبا من الشعوب، تخلى عن حقه في الدفاع عن أرضه ومقدساته، بما يمتلك من أساليب قوة أو أسقط وسيلة من وسائل كفاحه والدفاع عن نفسه، قبل تحرير أرضه؛ ولعل القول بأن الحملات العسكرية الإسرائيلية الكبرى التي شنت مؤخرا، ما كانت إلا رداً على العمليات الاستشهادية التي اتخذت كذريعة مناسبة لها، هو القول الأخطر والأكثر خداعاً وتضليلاً على الساحة الفلسطينية اليوم، إذ يكفي حصر حجم ومستوى العمليات العسكرية الإسرائيلية اليوميةً، كي يتبين زيف هذه الأكاذيب والأباطيل التي تستهدف تشويه صورة المقاومة الفلسطينية، وتقليل جدوى النتائج الهامة والخطيرة التي تحققها العمليات الاستشهادية التي تقوم بها مختلف فصائل المقاومة الفلسطينية.

إن الحقيقة الأكثر بروزا أن العمليات الاستشهادية، وعمليات المقاومة بشكل عام، ليست عمليات يومية كثيرة العدد، تنفذ على مدار الساعة، فيما تستمر العمليات العسكرية الإسرائيلية ليلا ونهارا، وعلى مدار الساعة وبوتيرة مختلفة، ضد أبناء وأرض الفلسطينيين، مما يشير بجلاء إلى حقيقة المخطط العسكري الإسرائيلي ذي الفصول والمراحل المتعددة، الذي يتواصل ويأخذ مداه بمعزل عن أية مقاومة فلسطينية[2]؛ وقد يكون في عمليات القصف

---

[1]- نواف هايل تكروري، العمليات الاستشهادية في الميزان الفقهي، مركز الإعلام العربي، سلسلة كتاب القدس (23)، الطبعة الأولى، الجيزة- مصر، 2003، ص 30.

[2]- م.إسماعيل عبد اللطيف الأشقر ومؤمن محمد غازي بسيسو، العمليات العسكرية للمقاومة الفلسطينية (2000/9/28-2004/12/31م) ، سلسلة انتفاضة الأقصى(6) ، المركز العربي للبحوث والدراسات، بدون طبعة، غزة - فلسطين، يناير2005، ص 44.

والتجريف التي طالت قطاع غزة في الأشهر الأولى لاندلاع الانتفاضة دون، ومثلها في بعض مناطق الضفة، والاغتيالات الخطيرة في أوقات الهدوء وفترات وقف إطلاق النار التي استهدف بعضها القادة والمسؤولين السياسيين، دليلا وبرهانا على المنحى العسكري المتواصل من الجانب الإسرائيلي وغير المتصل بالمسار البياني والفاعلية الميدانية لعمليات الفلسطينيين، حتى اجتثاث المقاومة الفلسطينية وكسر إرادة الجهاد والمقاومة المسلحة، وروح الفداء والصمود في نفوس أبناء الشعب الفلسطيني.

وتأسيساً على ذلك، لا مجال للتمسك بالذرائع المعلنة حيال ارتباط الحملات الإسرائيلية الكبرى ضد الفلسطينيين بالعمليات الاستشهادية، خاصة حين يفضح الإسرائيليين أنفسهم بأنفسهم، فيؤكد بعض مسؤوليهم الأمنيين أن عملية "السور الواقي" المنفذة نهاية شهر مارس عام 2002، قد خطط لها مسبقا في سياق المخطط الإسرائيلي لضرب المقاومة الفلسطينية وتحطيم الكيان السياسي الفلسطيني، وهو ما أكدته الصحف العبرية، وصحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية، ومجلة "فورين ريبورت" البريطانية، قبل تنفيذ عملية السور الواقي الصهيونية بعدة أسابيع، فيما أكد الوزير الإسرائيلي السابق "بنيامين بن أليعازر"، أن عملية اجتياح قطاع غزة التي تقررت عقب عملية "ريشون لتسيون" الاستشهادية شهر ماي 2003، قد أعد لها سلفا، ولم ترتبط بأية علاقة بالعملية الاستشهادية.

ومن هنا، فإن الحملات العسكرية أو الاستيطانية الإسرائيلية، لن تتوقف حتى استكمال بنود وفصول المخطط المرسوم من قبل إسرائيل، حتى لو أوقف الفلسطينيون إطلاق النار وتنازلوا عن العمليات الاستشهادية وكافة أشكال النضال الوطني، فالبلدوزر الإسرائيلي ماضٍ في تحقيق أهدافه ومخططاته حتى النهاية.

7- العمليات الاستشهادية كذلك ظاهرة اجتماعية وفق جميع الضوابط السوسيولوجية، لأنها تعبر عن رفض مجتمع معين لوضع ما في مرحلة معينة، فالمجتمع الفلسطيني طور رؤية خاصة بالشهادة والاستشهاد، وهي تعبير عن معاناته من إرهاب يمارسه ضده عدو مضبوط الشخصية والمعالم، بحيث يمكن استهدافه ماديا، وعليه، فالمجتمع الفلسطيني على بينة من نجاعتها، ومن أن لها ثمنا، وهو يؤديه بالتضحية بأبنائه، وبالتالي هو يتحمل كلفة تلك العمليات جماعيا[1].

فالاقتناع الجماعي في المجتمع الفلسطيني يفسر شعبية "العمليات الاستشهادية، لأن الشارع الفلسطيني يؤيدها، فقد دلت جميع التقارير المخابراتية واستطلاعات الرأي الفلسطينية والمحايدة، على أنه حتى في الفترات التي يخف فيها التوتر وتكون الحياة عادية، تظل نسبة مؤيديها مرتفعة، فأدناها هي 60 %، أي أنها أضحت وفق جميع المعايير السوسيولوجية، ظاهرة اجتماعية مترسخة، وطبعا حين تشتد الأزمة، وخاصة عندما تقدم سلطات الاحتلال على اغتيال أحد رموز المقاومة أو تمس بمقدس، فنسبة المؤيدين ترتفع إلى 90%[2].

9- كما لا ينكر أحد مدى أهمية الرأي العام العالمي، وضرورة السعي لكسبه وضمان تأييده في سياقه الطبيعي، دون أن يعني ذلك تنصيبه قاضياً على مسيرة المقاومة الفلسطينية أو محدداً لوجهتها وسياساتها، ولو كانت في الطريق الخاطئ والاتجاه المعكوس، غير أن الإشكالية الكبرى التي تقف حجر عثرة في وجه تحقيق هذا الهدف، أن الرأي العام العالمي يقع تحت تأثيرات إعلامية خطيرة، يقودها اللوبي الإسرائيلي، الذي يملك مؤسسات إعلامية كبرى، ويؤثر على مؤسسات ضخمة أخرى، فضلا عن التوجه الإعلامي غير المتوازن الذي تمارسه كثير من دول العالم حيال القضية الفلسطينية، والواقع تحت ضغط

[1]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 11.

[2]- نفس المرجع، ص 25-26.

الابتزاز الإسرائيلي، مما يجعل من التعويل على التعاطف الدولي الكامل، أمرا غير قابل للتحقيق.

على أن هناك تساؤلات تثار حول دور الرأي العام العالمي حيال العدوان الإسرائيلي، وقمعه اللاإنساني للشعب الفلسطيني، وسر عجزه عن فرض قرارات الشرعية الدولية الكثيرة التي أدانت ممارسات الاحتلال منذ عشرات السنين، وسر ثورته حيال مشاهد القتلى الإسرائيليين، فيما يسقط الفلسطينيون شهداء بالمئات دون إدانة أو أي ضجيج؟[1].

إن هذا الرأي العالمي، يرى يوميا صور المجازر وتشييع الضحايا وسجل إرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل ضد الفلسطينيين، كما يستطيع المقارنة بين الحجارة والأسلحة البسيطة التي يستخدمها الفلسطينيون ويبن صواريخ وقذائف الطائرات التي تستخدمها إسرائيل ضدهم، أي بين الفلسطينيين العزل وبين إسرائيل التي تمتلك جيشا من أقوى الجيوش في العالم، كما أنه يستطيع أن يسأل عن سبب وجود الإسرائيليين جيشا ومستوطنين في الأراضي الفلسطينية[2]، والحقيقة أنه ما عدا نخبة من المثقفين أو المهتمين، فإن الرأي العام العالمي الغربي خصوصا لن يسأل هذه الأسئلة، لأنه وللأسف لن يجد من يطرحها عليه أو من يضعها على جدول أعماله[3]، لذلك، ليس صحيحا أن العمليات الاستشهادية قد بددت التعاطف الدولي، أو منعت الإسناد العالمي للقضية الفلسطينية، فالقضية الفلسطينية التي تجاوز عمرها الستون عاماً لم تعرف العمليات الاستشهادية، إلا في السنوات الأخيرة، فيما بقي العالم بأسره صامتا على وقع المعاناة الفلسطينية المتصاعدة أكثر من ثلاثة وأربعين عاما لم تحدث

---

[1]- م.إسماعيل عبد اللطيف الأشقر ومؤمن محمد غازي بسيسو، المرجع السابق، ص47.

[2]- ماجد كيالي،" انتفاضة الأقصى: تعقيداتها وإشكالياتها"، مجلة رؤية، العدد (20)، تموز 2002، ص 44.

[3]- تغريد سمير كشك، المرجع السابق، ص 105.

فيها عملية استشهادية واحدة، دون أن يحرك ساكنا لنصرة وإنقاذ الفلسطينيين. ومع ذلك، تبدو المقاومة، بعملياتها الاستشهادية القوية والمتصاعدة، في طريقها لتحقيق ما فشل فيه عمليات التسوية، وما الحملات العسكرية الإسرائيلية الكبرى التي فشلت فشلاً ذريعاً في إخماد جذوة المقاومة الفلسطينية، إلا دليلٌ على آثار ومفاعيل المقاومة وقدرتها على إجبار إسرائيل على إعادة النظر في توجهها[1].

10- يتفق المؤيدون مع الفريق المعارض للعمليات الاستشهادية، حول مسألة جسامة الخسائر التي تكبدها الفلسطينيون جراء حرب الإسرائيليون عليهم، إلا أنهم يشددون على أن حساب الربح والخسارة في سبيل الحصول على الاستقلال ووضع حد للاحتلال له منطقه الخاص، ولابد لكل من يريد تحقيق الربح المعنوي أن يكون على استعداد لتأدية الثمن المادي. يقول عبد العزيز الرنتيسي في الموضوع: "لكل عمل في الدنيا سلبيات وايجابيات، وما من شك في أن الانتفاضة والمقاومة ستعودان على الشعب الفلسطيني ببعض السلبيات، وهو يتحملها لأنه يدافع عن حقه وكرامته ومقدساته، فالمقاومة لا يمكن أن تكون سهلة وبدون ثمن، فالسلبيات ضريبة المقاومة ودفعها الفيتناميون عندما طردوا الولايات المتحدة الأمريكية، ودفعها الفرنسيون عندما طردوا الألمان، ودفعها الجزائريون حين طردوا الفرنسيون، ودفعتها كل الشعوب التي وقعت تحت الاحتلال، وهي ضريبة لابد منها ولا يمكن للفلسطينيين أن يحرروا الأرض دون دفعها، ولا يوجد في التاريخ من حرر أرضه دون أن يدفع الثمن، خاصة عندما يكون الاستعمار استيطانيا، كما هو عندنا، ولا يمكن أن يخرج إلا بالانتفاضة والمقاومة".

ويرفض المؤيدون للعمليات فكرة حصرها في مجال الأراضي المحتلة عام 1967، على اعتبار أن الغاية الرئيسية من الاستشهاد الضرب بقوة في الداخل

[1]- م. إسماعيل عبد اللطيف الأشقر ومؤمن محمد غازي بسيسو، المرجع السابق، ص47 -48.

الإسرائيلي حتى يعيش الإسرائيليون الحرب في عقر دارهم، فيشعرون بما يشعر به الواقع تحت الاحتلال. يقول الرنتيسي في الموضوع:" إن وقف العمليات الاستشهادية داخل الخط الأخضر يعني السماح لجيش الاحتلال بارتكاب المجازر في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي نفس الوقت يقوم الشعب بتامين العمق الاستراتيجي لإسرائيل بالتعهد بعدم تنفيذ عمليات استشهادية داخل الخط الأخضر"[1].

ولعل أكثر ما يلاحظ حول رأي المستنكرين المنتقدين للعمليات الاستشهادية، رغبتهم في إحداث حالة من اللغط والجدل الداخلي، ومحاولة توفير نوع من الالتفاف الجماهيري حول الأفكار التي يطرحونها، بما يؤهلهم لتقديم لغة خطابية قوية في مواجهة أنصار ومؤيدي العمليات الاستشهادية، تمهيداً لفرض مواقفهم على الواقع الشعبي الفلسطيني، لكن رغم ذلك، فإن هذه الفئة على ما تشكله من مراكز سلطة ونفوذ في السياسة الفلسطينية الرسمية، تبقى محدودة أقرب إلى الهامشية مقارنة بالتيار الشعبي الواسع العريض الذي يتبنى الخيار الاستشهادي، وينادي به على الدوام في مواجهة العدوان الإسرائيلي المستمر[2]، ومع ذلك، فإن آثار العمليات الاستشهادية لا تقاس ببعدها السلبي من وجهة نظر أصحابها، بل إن الإيجابية الكامنة فيها لا تخفى على أحد، فجدواها تمتد لتصب في عمق القضية، وتحرز لها مكاسب لا تبلغها أي وسيلة أخرى.

إلا أن المؤيدين للعمليات الاستشهادية، على الرغم مما يبدونه من حماس يظلون واقعيين، فالعمليات بالنسبة لهم ليست غاية في ذاتها، أنهم يشددون على أن اعتمادها مرهون بما يتوخى منها، محين تحصيل الحد الأدنى من المطالب، أي نهاية الاحتلال ووقف العدوان ضد الشعب الفلسطيني

[1]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 122- 123.

[2]- م. إسماعيل عبد اللطيف الأشقر ومؤمن محمد غازي بسيسو، المرجع السابق، ص 38.

والممارسات الأخرى كالاغتيالات وهدم المنازل والاعتقالات والإفراج عن المعتقلين[1]؛ إلا أنه لابد من الإشارة إلى أن العمليات الاستشهادية أفقدت القضية الفلسطينية والمقاومة سند وتعاطف الرأي العالمي الغربي خاصة الأوروبيين، فكل عملية تشكل صاعقة إضافية لشعوب ما تزال تعاني من عقدة الذنب اتجاه اليهود.

المبحث الثاني:

شرعية المقاومة الفلسطينية والعمليات الاستشهادية

تنظر بعض الدول الغربية إلى المقاومة الفلسطينية، بأنها مقاومة عنيفة، والبعض الأخر يميل إلى إطلاق صفة الإرهاب عليها، وعلى نفس النهج تعمدت إسرائيل القيام بالخلط المفاهيمي والعملي بين الإرهاب والمقاومة، بين ما هو مشروع وما هو غير مشروع، والذي سبقه الخلط الفعلي بين ما هو مدني وما هو غير ذلك، وبين ما هو مبرر وما هو غير مبرر، في قائمة طويلة من الأحداث التي وثّقت عبر العشرات أو المئات من المؤلفات التي رصدت ذلك[2]، وعلى هذا المنوال تم استغلال العمليات الاستشهادية والعنف الذي تتسم به عملياتها لتشبيهه بالعنف الإرهابي والربط بينهما وبين الإرهاب، وهذا ما أثر سلبا على صورة المقاومة الفلسطينية وكانت له تداعياته ونتائجه على المستوى الفلسطيني والعالمي، وعليه سوف نتعرض لآثار العمليات الاستشهادية على ساحة النزاع الفلسطيني الإسرائيلي من خلال المطلب الأول، على أن نقف في المطلب الثاني على تداعيات العمليات الاستشهادية ونتائجها على المستوى الفلسطيني والعالمي.

---

[1]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 124.

[2]- عاطف الغمري، الشرق الأوسط الكبير، دار الحرية، القاهرة، 2004، ص16.

المطلب الأول: آثار العمليات الاستشهادية على ساحة النزاع الفلسطيني الإسرائيلي

يمكن حصر أهم آثار العمليات الاستشهادية على ساحة النزاع الفلسطيني الإسرائيلي، في النقاط التالية:

1. العمليات الاستشهادية تعتبر سلاحاً فعالاً ومؤثراً في مواجهة المجازر المتلاحقة التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني الذي ترك وحيداً دون نصير أو معين، فقد ثبت بالشواهد الحية والواقعية أن أياً من الخيارات التي تنفي العمل العسكري بشكله العنيف المتمثل في العمليات الاستشهادية، لم يكن قادراً على الدفاع عن الشعب الفلسطيني في وجه الإرهاب الإسرائيلي الذي دمر وشرد وقتل وجرف وزرع الموت والخراب في الأراضي والمدن والقرى والمخيمات الفلسطينية، وأن العمليات الاستشهادية هي الوسيلة الوحيدة التي أرهبت المحتل وأرغمته على إعادة حساباته في كثير من الأحيان[1].

2. أن العمليات الاستشهادية شكلت نوعاً من توازن الرعب والردع مع المحتل الغاشم، ولئن كان ميزان الفعل مختلاً لصالح الاحتلال، بحكم ترسانته وقدراته الحربية الضخمة، فإن مدى الرعب والفزع الذي أثارته العمليات الاستشهادية حال حدوثها، يكشف بجلاء حقيقة الردع الذي أحدثته في أوساط المجتمع الإسرائيلي على اختلاف مشاربه ومستوياته، بل أن الإحصاءات البحثية

---

[1]- إن ما ورد في أحد تقارير منظمة العفو الدولية -هيومن رايتش ووتش- أن التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين بأنها "جرائم ضد الإنسانية "، قول صحيح، ومع ذلك، فإن هذه الأعمال الإجرامية في أي وسيلة ينفي حق الشعب الفلسطيني المشروع في المقاومة المسلحة (حتى بما في ذلك التفجيرات الانتحارية إذا كانت موجهة إلى أهداف عسكرية مشروعة بدلا من المدنيين، أو ربما غير المقاتلين والأهداف عمل مشروع، لذلك فإن قنبلة انتحارية موجهة ضد المدنيين في القدس المحتلة تعتبر جريمة ضد الإنسانية؛ أما تفجير انتحاري عند نقطة تفتيش عسكرية هو عمل قانوني تماما، وهو عمل من أعمال المقاومة المسلحة.

see: John Sigler, Palestine: Legitimate Armed Resistance vs. Terrorism, Human Rights, The Electronic Intifada, 17 May 2004, p 04.

والتوثيقية، تؤكد العلاقة العكسية بين العمليات الاستشهادية من جانب والجرائم الإسرائيلية من جانب آخر، ففي الوقت الذي وظفت فيه العمليات الاستشهادية للرد على جرائم إسرائيل، أعقب ذلك انخفاضاً نسبياً في مستوى الفعل الإجرامي الإسرائيلي، في ذات الوقت الذي شهدت فيه أوقات الهدوء الفلسطيني التي غابت فيها العمليات الاستشهادية تصاعداً ملموساً في حدة الجرائم الإسرائيلية.

3. أن العمليات الاستشهادية تعتبر السلاح الوحيد الذي لا تملك كل القوى المادية الإسرائيلية مواجهته والتصدي له، فالأمر لا يتعلق بتقنيات تكنولوجية يمكن مواجهتها بذات الأسلوب، بل بكتلة من الإرادة والعنفوان التي تبغي تفجير نفسها في سبيل تحقيق هدفها المنشود، فقد فشلت كل المحاولات التي استهدفت تغييب هذا الأسلوب عن واقع الصراع مع المحتل الإسرائيلي، ويكفي أن إسحق رابين رئيس وزراء الاحتلال الإسرائيلي السابق، قد اعترف بالعجز في مواجهة الاستشهاديين والعمليات الاستشهادية، قائلاً لمنتقديه: "ماذا يمكن أن تفعل لإنسان يريد أن يموت؟!".

4. أن العمليات الاستشهادية تشكل في جانبها البشري أسلوبا للمقاومة الأكثر سهولة ويسراً بالمقارنة مع الأساليب الأخرى، إذ أن الأمر لا يتعدى توفير الشخص اللازم لتنفيذ العملية، وتزويده ببعض التوجيهات والإرشادات، دون أن يتطلب الأمر تدريباً حقيقياً على استخدام السلاح أو التزود بمهارات نوعية أو اشتراط خبرات معينة لإنجاح المهمة[1].

5. إن توازن الردع الذي نادت به حركة حماس وتمكنت من تحقيقه المقاومة الفلسطينية، يحتم الرد بقوة على جرائم ومجازر الاحتلال الإسرائيلي الذي لم يفرق بين مدني أو مقاتل وبين شيخ أو امرأة أو طفل، والذين لا زالت دماؤهم تنزف حتى الآن، وأفضل رد على ضرب العدو الإسرائيلي لكافة المدن

[1]- م.إسماعيل عبد اللطيف الأشقر ومؤمن محمد غازي بسيسو، المرجع السابق، ص 39.

الفلسطينية وهدم البيوت على أصحابها هو ضربه في العمق والوصول إليه في مدنه، لكي يشرب من نفس الكأس الذي أذاقها للشعب الفلسطيني[1].

6. أن العمليات الاستشهادية، وخاصة التي تصيب العمق الإسرائيلي، تعتبر أفضل الوسائل لإيقاع أكبر وأفدح الخسائر بالعدو الإسرائيلي، إذ أن إمكانية حدوثها في أماكن مختلفة تعج بالإسرائيليين يعطي مؤشراً واضحاً على حجم القتلى والجرحى الذي يمكن أن تحدثه في الجانب الإسرائيلي، ولعل الأرقام التي وصلت إليها العمليات الاستشهادية إبان انتفاضة الأقصى، تحمل أبلغ الدلالات على هذا السياق، كما أنه من ناحية أخرى إن الإمعان في الاستزادة في قتل الإسرائيليين، ومحاولة رفع حجم الخسائر في صفوفهم يرفع الروح المعنوية في صفوف أبناء الشعب الفلسطيني، ويخفف من آلامهم ومعاناتهم النفسية جراء الإرهاب الإسرائيلي، الذي يستهدف أبناءهم وقادتهم وأرضهم وقضيتهم.

7. أن العمليات الاستشهادية، ينسب لها الفضل الأكبر والأكثر تأثيرا على المجتمع الإسرائيلي، وزرع البلبلة والاضطراب في شتى مجالاته الاقتصادية والاجتماعية، فالأمن الاجتماعي والأمن الشخصي بات عملة نادرة في الشارع الإسرائيلي، والاقتصاد الإسرائيلي بات أضعف كثيراً من ذي قبل في ظل المعطيات الموثقة عن تدهور مجالاته المختلفة، فضلاً عن انحسار نسب الهجرة اليهودية إلى دولة الكيان الإسرائيلي، والتي بلغت أدنى مستوى لها منذ ولادة الكيان الإسرائيلي[2]، خاصة مع التفوق الهائل للقوات الإسرائيلية على كافة حركات المقاومة الفلسطينية، فقد جاءت العمليات الاستشهادية لتقيم توازن الرعب، لذلك تعتبر العمليات الاستشهادية دفاع شرعي مشروع وليست

---

[1]- العمليات الاستشهادية ..... بين المؤامرة ونجاحات المقاومة الفلسطينية، تقرير خاص، ص 16، منشور على الموقعين التاليين:

http://www.alqassam.ps/arabic/news1.php?id=38

http://alarabnews.com/alshaab/GIF/14-06-2002/Palestinefile.htm

[2]- نواف هايل تكروري، المرجع السابق ، ص 28.

إرهابا[1]، بل هيب أحد أهم الأسلحة الإستراتيجية للمقاومة مكنتها من التفوق المعنوي على العدو الإسرائيلي وفرض معادلة جديدة في ظل موازين القوى المادية غير المتكافئة[2].

8. هنالك عناصر عديدة تجعل من العمليات الاستشهادية السلاح الأكثر فعالية من منظور التنظيمات الإسلامية والعديد من التنظيمات الوطنية الفلسطينية في الوقت الراهن، لأن مفعولها مباشر وحاسم في الرفع من معنويات الجانب الفلسطيني، وفي المقابل مضاعفاتها على المجتمع الإسرائيلي إجمالا سلبية على الرغم من استمرارية التماسك البادي بين مكوناته المختلفة؛ ويمكن التمييز داخل هذه المكونات بين ما هو مباشر وأني يمكن للملاحظ معاينته في تقييم الفلسطينيين والإسرائيليين لتطور موازين القوى بينهما وبين ما هو استراتيجي يدل على حصول تغييرات جوهرية في المعادلات الإقليمية والمحلية.

ففيما يخص الآني والمباشر، فهو مرتبط أساسا بكون العمليات الاستشهادية سلاحا أعمى يضرب من دون تمييز، بل إن الخلط هو محركه الرئيسي، والقتل هو وسيلته الأمثل لتحقيق غايته الأسمى، ففعاليتها مضمونة لتحقيق الغرض الرئيسي وهو جعل الرعب يسيطر على المستهدف، وبالتالي وضعه باستمرار في حالة ترقب وتوجس، أي في موقف ضعف معنوي، فلقد وجد الإسرائيليون أنفسهم مضطرين للتأقلم مع هذا التهديد الذي لا يمكنهم مهما حاولوا احتضانه أو حتى التقليص من شدته، فالرعب والإحساس به أضحى سمات الحياة اليومية الإسرائيلية[3].

---

[1]- السيد مصطفي أحمد أبو الخير، العمليات الاستشهادية في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، نشر في 9 أيار 2009، ص 03، على الموقع الالكتروني التالي:
http://www.radicaljustice.com

[2]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 62.

[3]- نفس المرجع، ص 91- 92.

9. العمليات الاستشهادية كما يصفها المحللون، جعلت كبار قادة العدو، يتساءلون عن مدى قدرة دولة الكيان الإسرائيلي على البقاء، واعتبروا أن ما أسموه بحرب الاستقلال لم تنته بعد، وقالوا إنه ليس بالإمكان منع وقوع العمليات الاستشهادية، وهذا اعتراف واضح بعجزهم عن مواجهة تلك العمليات.

من جانب آخر فقد أثرت هذه العمليات على كل نواحي الحياة بإسرائيل، حيث أصبح الرعب يزلزل قلوبهم ولا يستطيعون التجول في الميادين العامة أو ركوب الحافلات أو الذهاب للمطاعم والملاهي والنوادي، وارتفعت نسبة الهجرة العكسية من الكيان الإسرائيلي، وضربت السياحة، كما تأثر الوضع الاقتصادي وتراجع بشكل كبير واضطرت الكثير من الشركات الكبرى والبنوك لإغلاق أبوابها، وقراءة الانتكاسات الاقتصادية المتتابعة لدولة إسرائيل منذ بدء الانتفاضة تعطي صورة واضحة للإنجاز الفلسطيني في ضرب مقدرات الاحتلال الإسرائيلي[1].

فالأكيد أنه بفضل العمليات الاستشهادية نجح الفلسطينيون في إدخال الخطر إلى الداخل الإسرائيلي، واضعين حدا للسياسة الحربية الكلاسيكية للدولة العبرية القائمة على نقل المواجهة إلى ميدان العدو والحسم في أقصر مدة وهذه السياسة كانت ترمي إلى الدفع بمصادر الخطر إلى أبعد نقطة، واستغلال المكاسب الحربية بوقت لاحق وفي ظروف دولية مواتية كوسيلة للابتزاز والمساومة[2].

كما تكمن أهمية العمليات الاستشهادية، في أنها حققت أكبر عدد من القتلى في صفوف العدو الإسرائيلي، حيث وصل عدد القتلى الإسرائيليين جراء

---

[1]- تركي بن مبارك البنعلي، تقديم الدكتور حامد بن عبد الله العلي، نشر منبر التوحيد والجهاد، الطبعة الثانية، 1433ه– 2012م،

[2]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 94- 95.

العمليات الاستشهادية إلى 400 قتيل، مقابل 1600 شهيد تقريبا من الفلسطينيين خلال انتفاضة الأقصى لعام 2000، لتصبح نسبة قتلاهم إلى شهداء الفلسطينيين من 1 إلى 4 وهي أكبر نسبة في تاريخ النزاع مع إسرائيل، ونسبة مخيفة بالنسبة لقادة العدو، وهذا يعني أن وعود شارون لناخبيه بتحقيق الأمن ذهبت أدراج الرياح، وفشلت حملة السور الواقي في تحقيق أهدافها[1].

المطلب الثاني: تداعيات العمليات الاستشهادية الفلسطينية ونتائجها

بداية نشير إلى أنه يصعب الخوض هنا في نقاش حول المبادئ الأخلاقية أو الدينية التي تؤيد العمليات الاستشهادية أو تعارضها، كما أنه ليس المقصود استصدار فتوى تشجع عليها أو تدينها، لأنه سيبقى ثمة خلاف في الاجتهاد حولها، ولا يتعلق النقاش بالحق في المقاومة من عدمه، لأن مقاومة الاحتلال عمل مشروع، ولكن ما يجب مناقشته والتوافق عليه هو الجدوى السياسية لتلك العمليات أي مدى نجاحها في خدمة القضية الفلسطينية أو الإضرار بها، والأهم من ذلك التركيز على تداعيات العمليات الاستشهادية ونتائجها[2]، وكذا معرفة إطار استخدام هذا الأسلوب وتوظيفه لإزالة الاحتلال الإسرائيلي[3]، ولماذا لجأ إليها الفلسطينيون، وسيتم الإجابة على هذه التساؤلات كالتالي:

من حيث الإجابة على التساؤل الذي يدور حول لجوء أفراد المقاومة الفلسطينية إلى العمليات الاستشهادية؟، وما هي تداعيات العمليات الاستشهادية

---

[1]- العمليات الاستشهادية .. بين المؤامرة ونجاحات المقاومة الفلسطينية، المرجع السابق، ص 17.

[2]- نفذ الفلسطينيون خلال الفترة من (2000-2004) ما يقرب من 138 عملية استشهادية، نفذت ثماني عمليات منها بواسطة فلسطينيات (4 عمليات في عام 2002، وعمليتان في عام 2003، وعمليتان في عام 2004).

[3]- ماجد كيالي، "الانتفاضة والمقاومة والعمليات الاستشهادية"، المرجع السابق، ص 45.

على المستوى الفلسطيني والعالمي؟ وهل يمكن التخلي عنها؟، نتطرق للنقاط التالية:

1. أن المقاومة بشكل عام والعمليات الاستشهادية بشكل خاص، جعلت الإسرائيليين يحسبون ألف حساب قبل القيام بأي مجزرة أو عملية إبادة ضد الشعب الفلسطيني، حيث أصبحت هذه العمليات هي الرد الذي يتوقعه اليهود على كل مجزرة يرتكبونها ضد المدنيين الفلسطينيين[1]، كما ثبت أن هذه العمليات أكثر تأثيرا من غيرها، والأنجع في إدخال الرعب في قلوبهم[2]، وهذا ما يمكن استقراؤه من مقولة ضابط في الجيش الإسرائيلي: "إن الفلسطينيين باتوا يدركون بأن الهجمات سلاح استراتيجي، يحقق التوازن مع التفوق التقني، والسيادة العسكرية الإسرائيلية".

2. أضافت العمليات الاستشهادية إلى خط المواجهة ضد إسرائيل أبعادا جديدة في حسابات القوة ومرجحات النصر، وتنامى الرهان على جدواها العسكرية ومؤثراتها السياسية، إلى درجة أنها أصبحت تطرح كإستراتيجية قتال منافسة، فقد استطاعت هذه العمليات أن تحقق توازنا نسبيا: بين آلة عسكرية متطورة يتحكم بها عقل مدمر وبين إرادة حرية وسيادة لا تملك سوى الجسد، كما أنها عممت في الداخل الفلسطيني روح العطاء، وخلقت صلابة لا تتحطم، وفجرت نزوعا

---

[1]- كما حصل في الحرم الإبراهيمي، حيث اعتدى يهودي حاقد اسمه "باروخ غولدشتاين" - وساعده في ذلك الجنود الإسرائيليين في الحرم- على المصلين بالرشاشات والقنابل، وذلك خلال صلاة الفجر يوم الجمعة 15 رمضان 1414ه، مما أدى إلى استشهاد أكثر من 35 من المصلين، وجرح أعداد كبيرة، وقد رد الفلسطينيون على هذه المجزرة بأربع عمليات استشهادية، عند وقوع المجزرة، وقد نفوذها فعلا.

[2]- نواف هايل تكروري، المرجع السابق، ص 33.

لا يحده شيء نحو الحرية، أصبح معه الموت حرفة، وتحول الاستشهاد إلى واجب مقدس[1].

3. الاحتلال الإسرائيلي لا يكف عن العدوان على الفلسطينيين وتطوير الأسلحة للقضاء عليهم، ومن حق المعتدى عليه أن يدفع الأذى والخطر عن نفسه بكل الوسائل، لذلك من حق الفلسطينيين أن يدفعوا الأذى عن أنفسهم بكل ما يستطيعون من الوسائل المتاحة، وبخاصة أن الإسرائيليون يتفننون باستمرار في ابتكار وسائل وطرق وتدابير جديدة لقتل الفلسطينيين، وعليه نتيجة لاستمرار البطش الإسرائيلي بالفلسطينيين، ومن ثم استهداف المدنيين والأطفال والنساء ومصادرة الأراضي، كان لابد من إرسال رسالة إلى إسرائيل بلغة تفهمها، حيث أنها لا تفهم، إلا لغة القوة[2].

4. إن العمليات الاستشهادية تقع أصلا على الأراضي الفلسطينية، وليس في أراضي خارج فلسطين وبالتالي فهي مشروعة ما دامت تمارس في مواجهة المحتل الإسرائيلي وقواته، ولا يمكن وصف العمليات الاستشهادية، بأنها اعتداء على إسرائيل[3].

5. أكدت العمليات الاستشهادية – وبفعل الإرهاب الإسرائيلي اليومي- أنها الخيار الذي يحظى بتوافق ودعم شعبي كبير، خصوصا أن العدو الإسرائيلي لا يتوقف عن استهداف المدنيين، كما أكدت الوقائع -ولاسيما بعد المجازر الإسرائيلية- اشتداد اللحمة بين المقاومة والشعب الفلسطيني لمواجهة واقع بلغ

---

[1]- وجيه قانصو، العمليات الاستشهادية وإشكالية المشروعية جريدة السفير، منشورة بتاريخ 28 آيار 2002، ص 01، منشور على الموقع الالكتروني التالي:
http://www.sanabes.com/forums/showthread.php?178

[2]-م.إسماعيل عبد اللطيف الأشقر ومؤمن محمد غازي بسيسو، المرجع السابق، ص47-48.

[3]- صلاح جرار، "مفهوم الإرهاب والمقاومة (قراءة تحليلية)"، دراسات شرق أوسطية، العدد 24، صيف 2003، ص 91-92.

فيه الظلم أقصى درجات البشاعة بحيث أضحت البلد مغلقة تحكمها ثقافة الموت واليأس، مما عزز الخيار الجهادي والقيمة الكبيرة للعمليات الاستشهادية التي استنفذ العدو كل وسائله وخططه للقضاء عليها[1].

ولكن السؤال الأهم، يتمحور حول مدى نجاح العمليات الاستشهادية في أهدافها، وبمعنى أخر ما التداعيات التي أحدثتها العمليات الاستشهادية الفلسطينية؟

العمليات الاستشهادية لم تكن مجرد جهاد نفسي، بل كانت تحولا نوعيا في موازين القوى بين الشعب الفلسطيني الأعزل والمحتل الإسرائيلي المدجج بأحدث آلات القتال والقنابل النووية، وانقلبت القاعدة التي قامت منذ اندلعت الانتفاضة بصورة مثيرة، بحيث بعدما كان كل قتيل إسرائيلي يقابله عشرة قتلى فلسطينيين بالأشهر الأولى، تراجعت النسبة لتصل بعد سنتين إلى أنه مقابل كل قتيل إسرائيلي يقتل من 2 إلى 6 فلسطينيين، وعلى أعتاب نهاية السنة الثانية من الانتفاضة وبداية السنة الثالثة كادت إسرائيل تكون أمام واقع قتيل أو أكثر كل يوم؛ فقد أكدت العمليات الاستشهادية القدرة الأمنية للمقاومة الفلسطينية، وأعطت لها مصداقية مضاعفة، خصوصا في تنفيذ تهديداتها المعلنة، فكانت المقاومة تشل الحياة وتضرب الاقتصاد، وكل ذلك يأتي في ظل قيام إسرائيل بوضع تعزيزات أمنية غير عادية وحواجز حديدية وأسمنتية، بل أن بعض العمليات كانت تقع، على الرغم من علم إسرائيل المسبق بالعملية ومكانها[2].

وتجنبا للإطالة والتكرار، فإن تداعيات العمليات الاستشهادية على المقاومة الفلسطينية، هي جزء مهم من تداعيات انتفاضة الأقصى، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ولكن يمكن القول أن العمليات الاستشهادية هي أسمى صور

---

[1]- حنان السقاط، المرجع السابق، ص 22.

[2]- ثابت محمد العمود، مستقبل المقاومة الإسلامية في فلسطين "حركة حماس نموذجا"، المرجع السابق، ص 272.

التضحية، لأن الاستشهادي الذي يضحي بنفسه من أجل الدفاع عن دينه ووطنه، يعلم أنها تضحية لا يجني منها شيئا في الدنيا، بل يقدمها لمصلحة وطنه وشعبه.

ولكن ذلك لا يعني أن تداعيات العمليات الاستشهادية الفلسطينية، اقتصرت على الجانب الايجابي فقط، بل أنه ترتبت نتائج ذات أثر سلبي على القضية الفلسطينية، نوجزها في النقاط التالية:

1. سبقت الإشارة إلى أن العمليات الاستشهادية ساهمت في تقويض أمن الإسرائيليين، ورفعت تكلفة الاحتلال من الناحيتين البشرية والاقتصادية، لكن تكلفتها الفلسطينية كانت أيضا فادحة من الناحيتين البشرية والاقتصادية، إذ استطاعت إسرائيل بذريعة مواجهة العمليات الاستشهادية توجيه ضربات واسعة وموجهة للقيادات وعائلات الاستشهاديين قوضت شبكة القيادات الميدانية الفلسطينية، وألحقت ضررا هائلا في البنى التحتية والاقتصادية للمجتمع الفلسطيني.

2. على الصعيد الدولي، كان العمليات الاستشهادية نتائج سلبية، فهي مثلا، أضرت بشرعية المقاومة الفلسطينية المسلحة حتى في الأراضي المحتلة منذ عام 1967، إذ لم يعد الرأي العام الغربي يميز بين العمليات الاستشهادية التي تقع داخل الخط الأخضر وتلك التي تقع في الضفة والقطاع المحتلين، وبينما كان ثمة قبول دولي لعمليات المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال[1]، شوشت العمليات الاستشهادية على هذا القبول، وصعبت تفهم الرأي العام الدولي لأهداف الانتفاضة وعدالة قضيتها[2]، فقد أدّت العمليات الاستشهادية إلى التقليل من تفهم الرأي العام الدوليّ لأهداف الانتفاضة ولعدالة المقاومة الفلسطينية.

---

[1]- ماجد كيالي، "الانتفاضة والمقاومة والعمليات الاستشهادية"، المرجع السابق، ص 50.

[2]–Lansiné Kaba, Allahou akbar Islam, Terrorisme et Tolérance (un perspective africaine), préface de Souleymane Bachir Diague, présence africaine, paris, p120 .

ومن جهة ثانية استطاعت حكومة شارون التشكيك بشرعية أهداف الفلسطينيين على المستوى الدولي وبمصداقية قيادتهم، إذ استغلت هذه العمليات للترويج إلى أن الهدف الحقيقي منها لا يقتصر على التخلص من الاحتلال، وإنما يستهدف زعزعة أمن إسرائيل والقضاء عليها لاسيما بعد أحداث 11 سبتمبر2011 التي استطاعت إسرائيل استغلالها لعكس الصورة، واضعة نفسها موضع الضحية[1]، زد على ذلك وصف قطاع غزة بالإقليم المتمرد، كما عملت إسرائيل على وضع حربها ضد الفلسطينيين في سياق الحرب الأمريكية والدولية ضد الإرهاب[2]، وذلك لتدمير المجتمع الفلسطيني ماديا ومعنويا وعزل قياداته والقضاء على كيانه السياسي باعتباره كيانا إرهابيا[3]، ووصف حركات المقاومة الفلسطينية بالحركات الإرهابية، كما اتهمت غزة بأنها تحتوي على تنظيم قاعدة أخر[4].

3. عملت العمليات الاستشهادية داخل إسرائيل على تعقيد الموقف الفلسطيني على المستوى الدولي ووضعته في خانة العمل الإرهابي وهو ما استغلته إسرائيل في تبرير جرائمها أمام الرأي العام الدولي، وفي الوقت ذاته فسرت هذه العمليات التباين في الموقف الفلسطيني واختلاف الرؤى السياسية نحو طبيعة العمل المقاوم سياسيا وعسكريا، فتبني بعض الجهات الفلسطينية لهذه العمليات دون أي اعتبار للموقف السياسي الفلسطيني الرسمي، يشير

---

[1]- علي سمور، "الحلول الأمريكية وجدار الحقائق"، شؤون الأوسط، العدد 108، بيروت، خريف 2002، ص 202.

[2]-Christian Chocquet, op- cit, p 15.

[3]- تغريد كشك، المرجع السابق، ص 05.

[4]- علي سمور، "الحلول الأمريكية وجدار الحقائق"، المرجع السابق، ص 202.

بوضوح إلى حالة الفوضى في الصف الفلسطيني والى انحسار الدور التنسيقي على الصعيد السياسي، مما أثر سلبا على الموقف الفلسطيني دوليا[1].

4. نجحت إسرائيل على الصعيد الدولي– عبر ديناميكيتها السياسية وآلتها الإعلامية- في استغلال العمليات الاستشهادية لوصم عمليات المقاومة الفلسطينية بالإرهاب بغرض التشويش على عملها وتقويض شرعيتها، كما نجحت في إظهار الصراع مع الفلسطينيين، كأنه صراع بين طرفين كأنه صراع بين طرفين مسلحين ومتكافئين، ووصل الأمر إلى درجة أن إسرائيل استطاعت عكس الصورة، واضعة نفسها في موقع الضحية، في حين ظهرت صورة الشعب الفلسطيني بوضعية المعتدي[2]، وقد تمكنت إسرائيل عبر توصيفها هذا من تغطية ممارساتها الإرهابية والتدميرية ضد الفلسطينيين، إضافة إلى أنها بررت ذلك بمقولة الدفاع عن النفس، واستمرار احتلالها لأراضيهم ومحاولتها شطب كيانهم الوطني والتنصل من عملية التسوية برمتها، بحجة أنه لا يوجد شريك فلسطيني، مدعية أن هدف الفلسطينيين لا يقتصر على التخلص من الاحتلال، بل يستهدف أيضا زعزعة أمن إسرائيل والقضاء عليها[3].

ولقد بلغ الخلط والمغالطة بين الإرهاب وأعمال المقاومة الفلسطينية، إلى الحد الذي دأبت فيه السلطات الإسرائيلية والمسؤولون الأمريكيون إلى إطلاق وصف الإرهاب على جميع صور أعمال المقاومة التي توجه من جانب أفراد المقاومة الفلسطينية نحو أهداف إسرائيلية، بل حتى أعمال المقاومة التي توجه نحو أهداف عسكرية بحتة مثل ووحدات الجيش الإسرائيلي أو الحواجز

[1]- تغريد سمير كشك، إشكاليات المقاومة الفلسطينية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001، رسالة ماجستير في الدارسات الدولية، كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت، غير منشورة، فلسطين، 1 جوان 2006، ص 138.

[2]- ماجد كيالي، "الانتفاضة والمقاومة والعمليات الاستشهادية"، المرجع السابق، ص 51.

[3]- ثابت محمد العمود، مستقبل المقاومة الإسلامية في فلسطين "حركة حماس نموذجا"، المرجع السابق، ص 373.

العسكرية التي يقيمها الجيش الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة تم وصفها بالعمل الإرهابي، ومن هنا فقد شاع إطلاق وصف أعمال الإرهاب أيا كانت الأهداف التي توجه إليها، خاصة منذ انطلاق انتفاضة الأقصى في سبتمبر عام 2000، وبوجه خاص منذ بدء العمليات الاستشهادية، وهو ما يدعو للنظر نظرة فاحصة للأعمال التي تقوم بها المقاومة الفلسطينية ضد الأهداف الإسرائيلية[1].

أما على الصعيد الفلسطيني، فإن البعض يرى في العمليات الاستشهادية وسيلة عنيفة تندرج في إطار الكفاح المسلح الذي نبذته منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية، واختارت طريق المفاوضات والتسوية بديلاً له، وأن تلك العمليات تترك آثاراً سلبية على النضال الوطني الفلسطيني.

فيما يرى البعض الآخر أن العمليات الاستشهادية، بما تحمله من مشاهد عنف وآلام، وخاصة تلك التي تستهدف المدنيين تقدم صورة مقلوبة وعكسية لحقيقة الإنسان الفلسطيني الرازح تحت نير الاحتلال وتكرس البغض والكراهية بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي، وتشوه صورة النضال الفلسطيني أمام الرأي العالمي الذي ينبغي الحرص على كسبه في إطار المعركة الإعلامية المحتدمة مع دولة الاحتلال[2].

5. أدى نجاح شارون في استغلال وتوظيف العمليات الاستشهادية التي استهدفت المدنيين الإسرائيليين في المناطق الإسرائيلية، إلى تخليصه من مأزق تمثل على المستوين الداخلي والخارجي في الوقت الذي عانت سياسة شارون على المستوى الداخلي من تشكيك وقلق الناخب الإسرائيلي الذي أعطاه ثقته على أمل إنهاء الانتفاضة خلال مئة يوم، ولكن أزمة شارون الداخلية بدأت مع

---

[1]- صلاح الدين عامر، حق الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية المحتلة، ديوان الفتوى والتشريع، بدون طبعة، مصر، 2009، ص 23- 24.

[2]- م. إسماعيل عبد اللطيف الأشقر ومؤمن محمد غازي بسيسو، المرجع السابق، ص 38.

استمرار حملته لفترة أطول، فقد بدأت عوامل الضغط عليه تتزايد بفعل تفاعلات الأزمة الاقتصادية وعدم قدرته على وقف أعمال المقاومة الفلسطينية، ولهذا لجأ إلى الاتصال بالفلسطينيين لمحاولة وقف العنف ومواصلة التفاوض، وهو ما أثر سلبا على صورته داخل إسرائيل، كما أن شارون واجه في ذلك الوقت العديد من المشكلات المعقدة مثل اللاجئين وحق العودة وإمكانية التعايش بين اليهود والفلسطينيين وغير ذلك من المشاكل التي تحتاج إلى حلول عملية وليس لشعارات، ويبدو أن شارون اعتمد على سياسة اللجوء إلى التفاوض الذي يتخلله أزمات صغيرة وكبيرة مفتعلة تعوق الوصول لسلام نهائي، ولا تحدث انفجارا عسكريا نهائيا في نفس الوقت، وذلك من أجل محاولة للتخلص من هذه الأزمات.

ولكن استمرار العمليات التفجيرية في إطار سياسة التصعيد التي انتهجها شارون ضد الشعب الفلسطيني واعتماده لسياسة الاغتيالات لاستدراج ردود مقابلة، كان يدرك مدى عمقها وتأثيرها على الرأي العام الإسرائيلي لتغيير اتجاهاته ومؤشراته وتحديد الأولويات التي تخدم سياسته القائمة على الحل الأمني واستبعاد أي خيار سياسي، هذا التشكيك كانت له نتائجه الإيجابية أيضا على المستوى الدولي في ظل مناخ بات يعتبر القضاء على الإرهاب هدفا جديدا، وأصبحت مكافحة الإرهاب أساسا للشرعية الدولية الجديدة ومعيارا لها، وبدلا من أن يكون في صف المتهمين بالإرهاب، فقد أصبح في صف المعتدى عليه وأخذ يطالب بدور متزايد وبدعم وغطاء دولي للقضاء على حركة الشعب الفلسطيني وتقويض منجزاته وضرب خيار الاستقلال الوطني لديه تحت هذه الذريعة.

كذلك أعطت العمليات الاستشهادية ذريعة للولايات المتحدة الأمريكية، لشن هجوم دبلوماسي مكثف على الجانب الفلسطيني والدول العربية في وقت كان يفترض فيه أن يحدث العكس، وأن يتم الوصول إلى مرحلة التفاوض على

القضايا الجوهرية كالقدس واللاجئين، وهو الأمر الذي لو أدركته التنظيمات الفلسطينية المختلفة وفي ظل قراءة دقيقة لمكونات البيئتين الإقليمية والدولية، لأمكن الخروج من الأزمة بأقل قدر من الخسائر، فالمؤكد أن الأولوية في ذلك الوقت كان يجب أن تكون الحفاظ على الوحدة الوطنية الفلسطينية وعدم السماح للولايات المتحدة بتجريم مفهوم الكفاح المسلح ووضعه في دائرة الإرهاب، وبعد ذلك يمكن ترتيب الأوراق الفلسطينية على النحو الذي يسمح بأخذ زمام المبادرة من جديد.

ولعل خطورة الاستجابة الدولية الواسعة لمطالب شارون، لم تكمن بالإعلان عن بعض القوى كقوى إرهابية ومطالبة السلطة الوطنية الفلسطينية بتفكيكها تحت ذريعة ضرب البنية التحتية للإرهاب، إنما الخطر الأكبر أن القضية الفلسطينية أصبحت، وفي ظل هكذا مناخ ومطالب، قضية إرهاب وعنف وليست قضية تحرر وطني، وتم استبعاد خيار الاستقلال الوطني للشعب الفلسطيني الذي كان ولفترة قريبة مضت هو العنوان الرئيسي للتحركات السياسية الدولية والإقليمية، مما أضطر شارون وغيره لتقديم أفكار محددة حول الدولة الفلسطينية[1].

6. كان للخلاف السياسي الفلسطيني انعكاس سلبي على المقاومة الفلسطينية، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، إذ لم تتم دراسة أبعاد تلك الأحداث وتأثيرها على القضية الفلسطينية وعلى الانتفاضة لدى بعض الفصائل الفلسطينية المعارضة، ولذلك فإن إصرار حماس على الاستمرار في العمليات الاستشهادية، لم يؤدى فقط إلى الإضرار بالفلسطينيين، وإنما إلى الإضرار بإستراتيجية المقاومة المسلحة التي انتهجتها الأذرع العسكرية (كتائب الأقصى، وكتائب العودة والفصائل الأخرى) ضد المستوطنين والعسكريين الإسرائيليين في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

[1]- تغريد سمير كشك، المرجع السابق، ص 119-121.

فلقد أدت هذه التطورات إلى وضع الشعب الفلسطيني وقيادته في مواجهة حالة دفاعية لا يحسد عليها، إذ تغيرت أولويات معالجة القضية الفلسطينية بالنسبة للأطراف الدولية من الحاجة لمعالجة جوهر الصراع الفلسطيني الإسرائيلي والمتمثل في إنهاء الاحتلال ودعم الاستقلال الوطني للشعب الفلسطيني وصولا إلى إقامة دولته المستقلة، إلى ربط هذا الدعم والتأييد باستحقاقات داخلية فلسطينية من أهمها الإصلاح الداخلي ومكافحة الإرهاب، وذلك للتهرب من تزايد المطالبة بإنهاء الاحتلال وتأكيد إقامة دولة فلسطينية ذات سيادة[1].

7- كما جعلت العمليات العسكرية والجهادية داخل الخط الأخضر الإسرائيلي، المقاومة الفلسطينية تظهر كحركة إرهابية وجعلت النضال الفلسطيني مجرد إرهاب في أعين العالم، وبخاصة العالم الغربي بعد الحملة العالمية ضد ما يسمى بالإرهاب عقب أحداث 11 سبتمبر 2001، واستغلال إسرائيل لهذه الأحداث لوسم النضال الفلسطيني بالإرهاب، وتجنيد العالم للوقوف ضد انتفاضة الشعب الفلسطيني، ناهيك عن الدمار الذي يلحق بالمجتمع الفلسطيني وبنيته التحتية من قبل قوات الاحتلال بعد كل عملية بذريعة الرد على العمليات الاستشهادية. ولذا ينبغي أن تقتصر تلك العمليات ضد جنود الاحتلال ومستوطنيه في الضفة الغربية وقطاع غزة، فتركيز الضربات في الضفة والقطاع بعمليات قوية ومتلاحقة، يمكن أن يحقق نتائج ايجابية لصالح النضال الفلسطيني، من تفجيرات كبرى ودموية[2].

---

[1] - نفس المرجع، ص 117، 139.

[2]- منيب عبد الرحمن شبيب، نظرية الأمن الإسرائيلية في ظل التسوية السلمية في الشرق الأوسط وأثرها على عملية التحول السياسي والاقتصادي للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة في الفترة (1991- 2002)، بحث لنيل درجة الماجستير في الدراسات العليا في كلية الاقتصاد بجامعة النجاح الوطنية، غير منشورة، فلسطين، 2003، ص 202- 203.

خلاصة القول أنه ومهما يكن الجدل الدائر حول فاعلية العمليات الاستشهادية التي تستخدمها المقاومة الفلسطينية في صراعها مع الاحتلال الإسرائيلي، وعلى الرغم من الانتقادات والتنديدات التي توجه لتلك العمليات بأشكالها المتنوعة، على أنها تؤدي إلى خسارة التعاطف الدولي مع القضية الفلسطينية، وتدفع جيش الاحتلال الإسرائيلي إلى توسيع عدوانه على الشعب الفلسطيني والتنكيل به، إلا أنه مما سبق يتضح لنا جانباً من طبيعة الأثر والجدوى التي حققتها العمليات الاستشهادية.

فبنظرة موضوعية، يمكن القول أن تلك العمليات استطاعت أن تؤثر على المحتل الإسرائيلي وأن تخلق في الوقت نفسه حالة من التوازن النسبي بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي، خاصة مع التفوق الهائل للقوات الإسرائيلية على حركات المقاومة الفلسطينية، بحيث مكنت الشعب الفلسطيني ولأول مرة من التأثير في إسرائيل، بما يوازي قدرة إسرائيل على التأثير على الشعب الفلسطيني، مما يقطع بأهمية هذا الأسلوب، وضرورة التمسك به، وحيوية استخدامه، في مواجهة الهجمة الصهيونية الشرسة التي تستهدف الشعب الفلسطيني.

الخاتمة:

في الأخير وتأسيساً على ما سبق، فإن الخلاصة الأهم التي تستشف من خلال العرض السالف أن العمليات الاستشهادية شكلت سلاحاً خطيراً بيد الفلسطينيين ومتغيراً مهما وتحولاً جذرياً في المقاومة الفلسطينية، ولكنها شكلت تحديا كبيرا أيضا للمقاومة على مستوى الممارسة، وهذا ما برز بوضوح من خلال واقع المقاومة الفلسطينية، إذ أن انتهاج العمليات الاستشهادية كأسلوب وحيد من قبل بعض حركات المقاومة الفلسطينية أثر سلبا على صورة الشعب الفلسطيني حيث طغت على كافة أشكال المقاومة الأخرى بما فيها المقاومة الشعبية، وتجاهلت كافة المتغيرات على الساحة الدولية وخاصة

أحداث 11 سبتمبر 2001، ووظفت في بعض الأحيان لخدمة سياسة إسرائيل لتنفيذ مخططاتها والتغطية على عملياتها الإرهابية ضد الشعب الفلسطيني تحت ذريعة الدفاع عن النفس ومكافحة الإرهاب الفلسطيني، وبدلا من أن تعمل على تأجيج الرأي العام العالمي ضد إسرائيل، مكنت هذه الأخيرة من استغلال الوضع للترويج الإعلامي ضد المقاومة الفلسطينية وتصعيد عدوانها وجرائمها ضد الفلسطينيين، لكن مع ذلك تبقى العمليات الاستشهادية السلاح الوحيد للشعب الفلسطيني لمواجهة إسرائيل وممارساتها وفي تصعيدها للقتل والاغتيالات والإبادة ضد الشعب الفلسطيني، لذلك لا يجوز على الإطلاق القبول باعتبار أفراد المقاومة الفلسطينية إرهابيين وفقا للوصف الإسرائيلي، فالإسرائيليون هم الإرهابيون.

وبهذا نصل إلى أنه وفي إطار التأكيد على شرعية العمليات الاستشهادية، فإنها لابد أن تتوافق مع الشروط القانونية والإنسانية، فلو وجهت مثل هذه العمليات نحو سلطات الاحتلال ومنشأته العسكرية وقواته المسلحة وكل من له علاقة به، ممن يقدمون يد المساعدة للاحتلال وألحقت بهم أضرار مادية وبشرية، تعد عملا مشروعاً يدخل ضمن المقاومة المشروعة، بينما لو وجهت نحو المدنيين العزل الذين لا علاقة لهم بالنزاع، حتى وإن كانوا ينتمون إلى الدولة المحتلة، فإن هذه الأعمال تخرج عن نطاق المشروعية، وقد تعطي صورة مشبوهة عن حركات التحرر.